

مَرْيَمُ الْمِجْدَلِيَّةُ ... بَعْدَ ثَلَاثِينَ عَشْرًا قَرْنًا

لِلْكَاتِبَةِ الْإِنْجَلِيزِيَّةِ " بَارُونِس أَوْرَزِي "
بِقَلَمِ الْأَسَاقِطِ مُحَمَّدٍ لُطْفِي خُجَمَشِيَّةَ

الشمس لم تكن قط أشرق منها في هذا
النهار، ولا أبهى رونقاً ولا أبهر لآلاً،
ولا كان النسيم أروح قط منه في هذه
الساعة ولا أبرد على الأكباد ،
ولا أهدى على القلوب ، ولا أنعمش
الأرواح والأبدان . وبينهما يرتقيان
مع العباب الراخر ، يعملان المجاديف ،

خيل إليه أن حديفة بيلكور ،
قطعة من رياض الجنة، وامتلاً قلبه
سروراً وجذلاً لمنظر الأرصفة
والدكك والمباني القائمة على ضفاف
النهر مثل باليه رويال ، ودير
لاشاريتي حيث كان قد شرع
في بناء الجسر الفاخر الجديد ،
وبرج كارز چوبييه وقصر
الحرية ، ومنظر نهر الرون
تنلاً صفحته رونقاً وتوهج
مته بريقاً يضاحكه حاجب الشمس
وتلاعبه الأشعة، قد ازدحت على
صدره القوارب والزوارق —
هذه المناظر الجمّة المختلفة أفعمت
قلبه فرحاً ، وهزّت أعطافه
صرخاً .

ولا جرم أن يطرب لأمثال

ذلك المنظر حديث العهد بالسجن ، قد لبث
طويلاً في ظلمات وحشة بضائع ظلامها سواد
همومه وأشجانه ... وما زالا يستنحنان القارب
ارتفاعاً في النهر ، حتى انتهبا إلى قرية كولانج

تعريف بالقصة

بارونس أورزي أو البارونة
أورساي Orezy من أشهر كاتبات
القصص في اللغة الانكليزية . نبيلة
بريطانية ، مختلطة الجسدين الفرنسي
والسكوتي ، تسلست من نبلاء
فرنسيس هاجروا إلى إنجلترا أيام
الثورة الفرنسية ولذا اتخذت موضوع
الثورة وحياة فرنسا وانجلترا لمعظم
قصصها ومنها « الزهرة القرمزية » ،
سوف أسدد ديني ، المذودادو .
وقد اتخذت بيمرل رمزاً لشخصية
فتى محبوب جعلته بطلا لكثير من
قصصها الطويل في مقامرات النبلاء
أثناء الثورة . وهذه القصة التي تنقلها
إلى العربية تحكي تاريخ فتى فرنسي
ارنست كنزلو ، يبحث عن سر عميق
لقاء سر آخر ، يهبه لمن يهديه إلى
سر مولده وفيها وصف جميل
للاشراف والجزويت وتحليل للاخلاق
والنفسيات وهي منشورة في مجموعة
مقامرات بيمرل

(The adventures of the scar-
let Pinpernel.)

لما خرج أرنست كنزلو من
سجن لاجيوتير بمدينة ليون
في أصيل يوم ١٤ مسيدور من
السنة الثالثة للثورة الفرنسية ،
كان الخادم صاحب الرداء الرسمي
البنفسجي ذي السجاف والطرارز
الأحمرين ، في انتظاره ، فتناول
هذا الخادم أمتعة الفتى ارنست ،
وكانت زرة يـمـيرة ، ثم خرج
به من ذلك المكان المنكر سجن
لاجيوتير ، وسلك طريق
راه يارديني ، إلى ضفة نهر الرون
عابر ذلك الجسر الحجري العتيق ،
الذي صرت عليه ججافل
الصليبيين في طربة هم من قلب
بيرجندي وبيرجوني إلى رومة
ومالطة ، فالشرق الأدنى لمحاربة

المرب ، أتباع صلاح الدين الذي تغلب على
معظم أمراء فرنسا وإنجلترا ... فاستحضر الخادم
قارباً ، فركباه وارتقعا في النهر إلى قرية كولانج ،
وجعل ارنست كنزلو في أثناء ذلك يخال أن

وأشرف موضع كانت ترى صورة السيدة النبيلة
الكونته إيزابل دى كايت بريشة المعلم دافيد . ذلك
المصور النافع الذى امتد به أجله حتى رسم بريشته
تصاویر نابوليون وجوزفين بوهارنيه وجميع
الأمراء والأميرات من أسرة بوناپرت ، بعد أن
رسم تصاویر دانتون وروبر بييرومارات وشارلوت
كوردای . وقد قيل فى ذلك الحين إن هذا الرسام
الذى لا ضمير له ولا كرامة (كذا وما أنا إلا
ناقل) قد دنس بريشته بتصوير أوغاد الثورة ، بعد
أن شرفه الملوك بنقش صورهم ١١ ولكن دافيد
كان طوال حياته مفلوكاً متصمكاً ، لا يبالي
شيئاً فقد رسم صورة مارى أنطوانيت وصورة
جوزفين بوهارنيه ، وجمع بين اللوحتين فى بهو
مرسمه وقال لصديقه جوراندى « هاك صورتى
داعرتين ممتازتين ، الأولى أوصلتها المظمة
الامبراطورية إلى الفجر والفسوق ، والثانية أوصلها
الفجر والفسوق إلى المظمة الامبراطورية »
وقد نقلها جوراندى إلى رجال الحكم وإلى ذلك
النهاية تاليران ، فمزكته وقال :

« دافيد قالها ، وأنت تنقلها إلى ؟ علام تريدنى
أن أفعل به ؟ إنه مفتن ، وكل مفتن مجنون ، أترانى
أقدمه للمحاكمة . إن عهد فوكيه دى تنفيل
قد انتهى ، المحكمة الثورية قد غلقت أبوابها ...
ولكننى أستطيع أن أعمل شيئاً يسرنى ويسره ،
أى دافيد ، وهو أن ... »

فقال له جوراندى : ما هو ياموسيو تاليران ؟
فقال : سترى عما قريب . ثم صرفه ولم يكذ
هذا الصديق الخائن يبالغ باب الديوان ، حتى أمر
تاليران بالنقض عليه بتهمة التجسس . . . لقد صرت

الحسناء ، المضمنة طائفة عديدة من منازل بدية
ريقية للأشراف والسادة ، الذين عملت الثورة على
تقويض مجدهم وهدم صروح عظمتهم وتبديد
ثروتهم ، ومصادرة أملاكهم والقضاء على مظاهر
قوتهم ، بعد أن ظلموا الرعية وانتهكوا الحرمات ،
وناءوا بكلكلهم على صدور الأمة فامتصوا دماءها
واستعبدوها وهم أجراؤها وخدامها . وكان هؤلاء
السادة من الأعيان والأرستقراطية ، وعبيد
الشهوات وسدنة هياكل المال قد تعلق منهم بأذيال
الفرار من تعلق ، واختبأ فى خفايا القصور المتيقة
من اختباء ، وما كان يجرؤ على الظهور منهم إلا المسلح
المدرع الذى يستطيع أن يدافع عن نفسه . أماخدمهم
فكانوا يسرحون وعمرحون ، ولا جناح عليهم ،
لأنهم من طبقة الشعب ولا يتميزون عليه إلا بآثار
النعمة البادية عليهم . كذلك الخادم الذى كان
فى انتظار أرنت كزولو بساحة السجن ، فى عصر
ذلك النهار . وكذلك وصلاً إلى دار النبيلة الكونته
— وهى دار بهيجة جديدة ، إذ كانت من منشآت
العام الأخير من حكم لويس الرابع عشر ، وهى فى
الصف المواجه للنهر ، وراءها بستان أنيق ، وهى
تشرف على مشهدين جيلين ، أحدهما تلقاء بواساك
والثانى ناحية سان بول ، حيث يقوم القصر الفخم
المتيق — قصر البرنس بوربون

فى بهو الكونتيس أبصر أرنت كزولو بعض
تلك الصور التى كانت فى قصر جرانمولان ، والتى
قد نقلها السيدة النبيلة إيزابل دى كايت إلى دارها
الجديدة عقب وفاة زوجها — وهو والد أرنت
كزولو — من امرأة من الشعب . وفى أخص مكان

وكا أن الأفق الغربي يزداد حمرة كلما ازدادت الشمس دنواً من الغيب ، فكذلك كنت ترى السيدة الأرملة يزداد خدوها حمرة كلما ازدادت دنواً من أجلها ، فلقد كان وجهها يتوهج بالدهان القرمزي الذي كان يضاعف وجهه بياض ما يجاوره من الطلاء وكانت تلبس من الشعر ذلك النمط المجدد المسلسل الذي كان مألوفاً أيام الملك لويس الرابع عشر وكانت عيناها تشرق من وسط هذا البناء العجيب المركب من شتى أنواع الدهان والصبغة والطلاء . وهي ألوان من الأكاذيب . وإن البيت الذي يحمل في وسطه هؤلاء السادة والسيدات ، الجدير بالألا يضم بين أكنافه إلا ضرائن منافقين ، لأم لكل منهم إلا أن يكذب على صاحبه ويظهر له غير حقيقته . فالزوج يكذب كلما استقبل الأضياف بوجه باش قد ارتسمت عليه ابتسامة المداراة أو المجاملة ، والزوجة تكذب وتغضى على الفذى وتسبغ الشجى وتظل طول حياتها في كذب مستمر . تكذب على زوجها وشريك حياتها وقسيم روحها ، وتكذب إذا أمرت طفلها الصغير باحترام أبيه العزيز ، وتكذب إذا أكرمت لأبها أنها في هناء تام وعيش سعيد ، والخدم أيضاً يكذبون كلما تظاهروا بالخشية والخشوع وهم مائلون وراء كرمي مولاهم ، وكلما تفاقموا عما يقع من النزاع تحت أعينهم . وكذلك يقضى القوم حياتهم من مطلع الشمس إلى موعد النوم في كذب ونفاق ، ثم ترى أدهياء الحكمة يمتدحون ذلك الرياء الأبدي ، ويسمونهم مراعاة لأداب المباشرة واحتفاظاً بقواعد المجاملة . أما الصدق والصراحة وقول الحق فليست مثلاً صالحة لحسن المباشرة ولا قدوة طيبة لاستقامة المعيشة ، وبسبب هذا

هذه الخواطر برأس أرنست كنزلو الابن الطبيعي لزوج الكونتيسة إيزابيل دى كاييت في حياة ربة الصيد « ديانا » وعليها سارية سفراء ، وفي يدها قوس ، وعلى جبينها هلال ، وحولها كلاب تنب وتمرح . وكانت هذه الصورة قد نقشت أيام كان المشاق الملوكون يتوددون إلى ربة الصيد المذراء (إيزابيل) فيلقون عندها منزلة وزافي .

وكا أن الالهات لا يشين ولا يهرمن ، بل يتمتعن بصرياً دائماً ، وشباب سرمدي ، فكذلك ما برحت هذه الالهة (الكونتيسة إيزابيل) إلى يوم وفاتها تعتقد أنها لم تكبر قط ولا كان للزمن أدنى سلطان على شبابها ، وهكذا لبثت طول عمرها ترى أن الصورة لا تزال تحكي حسناتها وتمثل جمالها

كان أرنست كنزلو يريد الوقوف على سر مولده ، وكانت السيدة تريد الوقوف على سر مقتل زوجها ، الذي كان الفتى بسببه سجيناً . بعد أن سبق أرنست كنزلو إلى حجرة السيدة واسطة خادم الغرفة ، وانتظاره هنالك المدة التي تقتضيها مراسم التشریفات وآداب الزيارات ، نزلت الالهة « ديانا » إلى الظهور للفتى ، فجاء بتقديمها زنجى أسود في زى الأتراك ، أحمر الحذاءين في عنقه طوق من الفضة منقوش عليه شارة الفيكوتنس ، وهو يحمل وسادة السيدة ثم تبعته وصيفتها وجاء بعد ذلك طائفة من كلاب الصيد ينبحن ويمرحن أمام الصائدة ذات الجلال والمظمة . ثم أقبلت السيدة الكونتيسة ذاتها تنثر صنوف الطيب الغالية ، وفنون العبق وللشذا ذات البين وذات الشمال . وما زال أرنست كنزلو يذكر منذ طفولته أرج المسك الذي كان يذوق ويتنوع من أردان زوجة أبيه

وبعد يومين أعلن ماركيز ديلا مور عزمه على الرجل ، وكان مضيقه الكونت أثناء ذلك بامله بتأديب متكلف متصنع ، لا شك أنه يخالف ما هو ممهود فيه من الصراحة والتبسط ورفع الكلفة ، بيد أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى الظن بأن هذين النبيلين قد افترقا على غير الصداقة والاخاء

ولكنهما افترقا على ضغن كمين ، وحقد دفين ، ومار أشملتها الفيرة المحرقة . فان الفيرة متى تنهت لم يكن في طاقة الأفيون أو الرفين ، بل ولا في طاقة كل ما حوى الشرق من المخدرات والمسكنات أن تطفئ حننها أو تطفيء جذوتها

فقد اجتمع الكونت والمركيز وانتحلا سبياً للقتال ناهماً عقيب المشاء والمسرح واللعب بالورق . فنادوا على مركبات تسمهم وأصدقاءهم وشهودهم ، وهمسوا في آذان السائقين بالانطلاق إلى بستان رأس الذهب — يارك تيت دور — فلما بلغوا ذلك المكان نزلوا إزاء حانة — فولى كايمير — وكان الوقت منتصف الليل ، وقد هدأ الناس في مضاجعهم ، ولم يبق من الأوار إلا أشمة قليلة تنبث من نوافذ بعض المنازل . بيد أن الليل كان زاهي النجوم ، والسماء صافية الأديم ، ولم يكن المتنازعون يحتاجون إلى أكثر من هذا لقضاء وطرم الويل ، فدخلوا البستان ولبث السائقون في خارج السور يحرسون البوابة مخافة أن يزجج الاجتماع بمض الناس فانه لم يمض أكثر من دقيقتين حتى سمعت صيحة من السائقين الواقفين خارج البستان يدخنون « شبقاتهم » ويتكئون على السور ، وهم يراقبون سير النضال في داخله ، فعلم ارتست كنزولو من تلك الصيحة أنه قد وقع خطب جسيم ، فدار ملتفتاً ثم انطلق يعدو

التفان وقعت أغرب حوادث هذه القصة فالت الكونت دى كايت وهو فقيد الكونته إزابيل وبطلها كان قد استقبل في داره مركيز ديلا مور وصافه وأكرم وفادته أياما طويلاً وهو يعلم أن هذا المركيز الماخن قد انفصل عن زوجته وقد وقع له كثير من الحوادث التي لها مساس بالمرض والشرف ، وكان السبب فيها للنساء كما هي العادة . وقد لحظ الفيكونت كايت حديثاً دار بصوت خافت بين ضيفه وبين قرينته إزابيل ، فلما بينهما رب الدار (الكونت كايت) انهر زوجته قائلاً : « قبحك الله أيتها الأفعى الصغيرة ، أخرجي من الغرفة ! »

فصاح المركيز ديلا مور قائلاً :

إني أخبرك يا كونت عما قالت لي زوجته ، ويعلم الله أنني لا أكذب في حرف واحد منه . لقد نضرعت إلي ، وعيناها مملوءتان بالدمرات ، في الاقلاع عن ملاعبتك ألعاب الزهر أو الورق ، وأنت أعلم وأدرى هل ذلك السؤال في مصلحتك أو في غير مصلحتك

فقال الكونت كايت بصوت يابس جاف : « لا شك أنه كان في مصلحتي يا مركيز ، ولا شك في أنك مثال الانسان الكامل ، وإن الدنيا لتعلم أي قديس طاهر أنت ! »

فقال المركيز : لست بقديس ، ولست أنت شيطناً ، ولكن امرأتك ملاك

فقال الكونت : والله لأحاسبك على هذا فاعترض المركيز ديلا مور قائلاً : حقاً يا كونت إن المصائب في إسهام قدمه بالنقرس ليمجز عن الجري ورام نساء غيره .

إلى حيث وجد الكونت كاييت (زوج الكونتس) صرباً على الأرض ، وكان الماركيز ديلا مور واقفاً عند رأسه يقول بصوت أجوف : « هل أصابك جرح بليغ يا كونت ؟ »

فقال الكونت وهو طرح في مصرعه :

— أحسبني بين يدي المنيّة

فقال الماركيز ديلا مور الذي أصاب من الكونت كاييت مقتلاً : لا قدر الله ! لا أحسب الأمر كما تظن ! إنني أخبرك والله على ما أقول شهيد : بأنني كنت عازماً على التماس عفوك لو أنك أعطيتني فرصة لالتامسه . إن سيدتي الماركيزة بريئة من كل .. فقال الغيكونت المسكين وقد نهض متحاملاً ، وانكأ على صرقته : صه صه ! إن النزاع الذي بيننا لا يتعدى هذه الوريقات ، نعم هذه الوريقات الملونة (مشيراً إلى أوراق اللعب) وهنا وقع مغشياً عليه ، فاستحوذ الرعب على الجميع وحسبوه قد فارق الحياة ، ولكنه لم يكن مات فنقل إلى أحد الخانات العامة ليلافظ أنفاسه الأخيرة

وهناك أشار إلى الجميع إشارة ضعيفة بترك الغرفة ثم قال لارنست كنزوا :

إذن فأنصت إلى اعترافي وأنا على فراش الموت

فسأله الكونتيس النبيلة : فإذا قال لك ؟

قال لي : إنه أبي ، وإنني ولدت له من امرأة من غمار الشعب ، وهأنذا أطاعتك على ملابسات وفاته ، فأطعيني على سر مولدي . فصاحت الكونتيس : أشهد الله أنني بريئة من ذلك الاثم فقد حل بك وبأمك رحمة الله ظلامه جسيمة ، وإن أباك الخبيث هو الذي ... فقال لارنست متمماً : الذي جلب هذا العار على أسرتنا ... أعرف ذلك حق المعرفة ولا

أريد تكدير صفاء أحد قط ولا إفلاق راحة إنسان ما . فان ورتة الألقاب والثروة الآن كانوا أكرم أهل ودي ونسبي وما تهمدوني بسوء قط وحشاشم فصاحت الكونتس لإزابيل : إنني يا ولدي لم أعرف الحقيقة إلا قبل وفاته ببضعة أشهر . وقد زادني المأثم أنك سجنحت بسبب مصاحبتك في تلك الليلة ولا بد أن يكون بعض القسس عرفوه من سبيل الاعتراف

فقال لارنست : وعليك الآن يا أم ... يا زوجة أبي الكريمة أن تكشفني لي عن سر مولدي ، فدقة بدقة ، وسر بسر !

فقلت : لقد فحست عن أمر والدتك ، لأعرف أمي على قيد الحياة أم لا ؟ وقد خبرني الأب كايان في آخر زفرات حياته أن والدتك ماتت منذ أعوام عدة ، ولا شك عندي في مقاله . فقال لارنست : لست أدري أفي طابقي إثبات الزواج الذي عقد بين أبي وأمي ، على أنني ما كنت فاعلاً لو استطعت ، إذ لا أحب أن ألوث اسمك بالخزي ، أو أسوق المم والكد إلى من أكرموني . فاعلمى أيتها السيدة أن ابن أبي لن يضاعف ما مالك من أذى والده ، فاني أرمانه ، وامنحيني برك وعطفك فهو كل ما أرجو لديك ، ولن تربيني أذكر ذلك الأمر بعد الساعة

فصاحت الكونتس بالانجليزية ، وكان دأبها أن تنطق بها كلما احتاجت عواطفها ، لنشوتها في بلاط الملكة حنة ، ملكة إنجلترا أو إيرلاندا

« والله إنك لشريف الطبع كريم السجية » فقال لارنست منحنيًا في خشوع وتواضع : « ذلك ياسيدي البارة ما يقتضيه مقامى . إن في الدنيا أناساً

عظامهم سوس الكبرياء والأثرة وحب الذات . فهنا
الفضل راجع للآم حتما ، لا للآب الذى عرفته
خبثيا ما كرا

ثم اعتنق الكاهن المؤدب تلميذه القديم وجعل
يهتف بكثير من عبارات الإعجاب والاستحسان
قائلا : إن أرنتس فتى شريف القلب نبيل النفس
وإنه يفتخر بتلميذه وصديقه وقال له : إنه كان يود
أن يهديه إلى الكنيسة الحقة الواحدة التى ينتسب
إليها الآب وأن يدبجه فى سلك أشرف الجيوش التى
حارب فى صفوفها الانسان — يعنى طائفة اليسوعيين
التي تضم بين جنودها (كما يزعم الآب لامبير)
أعظم الأبطال الذين دبوا على أديم الغبراء — أبطال
شجمان لا يهابون شيئا ولا يمجزون عن احتمال
شيء ، يقابلون الجيش المرصم بقلوب أيده
ولا يخافون لقاء الموت مهما أفزعت صورته — جنود
بُسلأ ، قد حازوا من الانتصارات ما يكسف لآلؤه
أبهر فوز أحرزه أبرع القواد ، وغزوا المدائن
والشعوب حتى خرجت الأمم ركما وسجودا بين
أيدي لوائهم المقدس : الصليب ! واكنسوا من
برود المجد وأكاليل النصر ما هو أسنى وأبهى من
أشرف ما تقلده أجد الفاتحين فى الأرض ، تيجان
من النور السرمدي ، وهالات من البهاء الأزلى ،
وآرائك فى أرفع مقامات الفردوس

فشكر أرنتس لصديقه القديم ومؤديه ومعلمه
الآب لامبير اليسوعى ، حسن رأيه فيه وإن كان
لا يشاركه فى تبحره لمذهب الجيزويت ، ثم قال وقد
أمسك يد صاحبه :

« لقد فكرت فى هذا الأمر أيضا يا أبى العزيز ،
نعم لقد فكرت فى هذه المسألة وحالتها لنفسى ،

طلما وعدت أن أبذل فى سبيلهم روحى جزاء ودم
وحناهم ، أفليق بعد ذلك أن أعادهم وأشاحهم
من جراء لقب ؟ وماذا على أن يكون ذلك اللقب
فى أولهم مادام فى الأسرة ؟

فأجهشت الكونتيس بالبكاء ، وضمت أرنتس
إلى صدرها وأغدت عليه من النعم ما أنساه ألم
الذكرى والتفكير فى والديه وهما الكونت العظيم ،
و « السوقية » التى حملته فى أحشائها ووضعت له
تستطع إرضاعه ، ولا العناية به ، ولم يقع بصره عليها
وهو يدرك أنها أمه . ثم قالت له الكونتيس : أعلم
أن الآب لامبير المتكف الآن فى دير نور دام
دى فورفير ، بأعلى هضاب المدينة هو الوحيد
العالم بمصير المرحومة والدتك ، وقد وكلنا إليه
تهذيبك فى الصغر ، فأنم ها هنا معنا أياما ، حتى
تستجم من وعثاء السفر

فقال أرنتس السجين ... أو السفر ، شيء
واحد ثم ندعوه إليك ، فيقص عليك أنه الصادقة

ولكن أرنتس : لم يجد صبرا فاستأذن الكونتته
وسار قدما إلى الكنيسة ، بعد أن خلع ثيابه وتزيا
بأزياء الصعاليك الذين وصفوهم فى الثورة بمدمي
السرديلات « سان كيلوت » ولما بلغ باب الدير
واستأذن على الكاهن العتيق أخبره بكل ما وقع
وأنهى إليه أنه قد اطاع على أسرار أسرته وصمم
على عدم إفشائها ، فأكبره ذلك فى عين الكاهن ،
لما أبداه من الاثبات وإنكار الذات . وقال فى نفسه
حسبا إن فى هؤلاء المجهولى الأصول ، وأولاد الطبيعة
والأبناء غير الشرعيين من يسمون بمكارم أخلاقهم
درجات فوق أديباء الحسب والنسب الذين نخر

الناصية المجزوزة أو الضفائر المتهدلة

وانحدر القسيس وصاحبه الفتى أرنست كنزلو من أعلى فورفير إلى ضفاف نهر السون ، الذي يجري للنتى له مع نهر الرون في طرف المدينة الغربى حتى بلذا أقصى حى كروا روس وجادة جيراف ، إلى الشارع الذى كان يقيم فيه أبوه والذى ولدت فيه أمه على ما يعلم . ثم قال له : كانت أمك من أهل هذه هذه المدينة ، فى سنة ١٧٧٥ قدم أبوك ههنا فى حاشية الملك السابق فتعرف أبوك (وكان لا يزال ضابطاً فى الجيش ولم يرث لقب الكونتية الرفيع) بأمك وطاردها حتى أوقعها فى حبائل غرامه وقد أخبرنى فى كثير من أحاديثه ، وكنت أشعر يومئذ بأن الواجب بقضى على بكتماها أن تلك المرأة كانت رحيمة القلب كثيرة الصلاح ، حجة الوفاء رقيقة العواطف ، وله الحق وله العذر فى أن ينجعل ويستحى من مساكنة فى معاملتها ، وكثيراً ما أعرب لى عما يقدر فى قلبه من صريح الندم ، وما يحز فى ضميره من خالص التوبيخ على ماسامه إياها من سوء العذاب كما كان يحدثنى عن صفاتها الحميدة وخصالها الكريمة بلهجة تنم عن الحنان والمحبة . وقد اعترف لى أنه كان يفرط فى إساءتها وأن حياته يومئذ كانت سلسلة من مخازى الفسق والمقاصرة والفقر . وفى ذلك الوقت حملت بك أمك . فلما انكشف السر لوالديها لعناها وطردها ولكنها لم تعنف من جلب لها التماساة والخراب ، إلا بعبراتها المنسكبة من مدامها الآبية وبما ارتسم على محياها من آيات الشقاء . وكان اسمها جرتود كنزلو . فأنت منتسب إلى جدك لأمك . وهذا هو السر فى حملك هذا القلب الذى لم تكن تعرف علة اقترانه باسمك . ولم يحض على مولدك قليل

كما ينبغي لكل امرئ أن يفعل ، وإنى لباذل جهدى فى سبيل الحق والخير ، وإنى لأعطى الله من حسن الطاعة وصدق الايمان بحسب طريقتى مثلاً نمطيه أنت بحسب طريقتك .. إنى لا أستطيع التصديق بأن القديس فرنسيس جافير قد عام فوق اليم بمبائه ولا أنه أحيا الموتى — لقد حاولت جهدى تصديق ذلك فلم أفلح . ولقد أوشكت ذات مرة أن أصل إلى حد اليقين ولكنى لم أستطع . فدعنى أتمس الحق وأطلب الهدى وأسأل الله الخير من الطريق الذى أنهجه انفسى

فجعل القسيس يتهد لتنادى تلميذه فى الجهل وإصراره على الضلال . ولكنه لم يمنه محبته وعطفه . وكان توثق عرى الصداقة بين الأب لاميير وأرنست كنزلو قد شجع هذا الأخير على سؤال صاحبه عن طرف من تاريخ أمه المسكينة تلك التى طالما كان يهتف بها فى أحلامه والتى لم يرها قط فى حياته . وشرح الفتى أرنست للأب لاميير ما جرى قبيل مقتل والده وبمده ، وذكر له العهد الذى قطعه للدكوتته والأمرار التى وقف عليها ، ثم توسل إلى الأب لاميير فى إطلاعه على ما يعرفه من أبناء تلك المرأة المسكينة التى انتزع من أحضانها

فنهض الأب الجيزوبى وتزاي بزى « أحد مندوبى الشعب » كوميسير دى بيل — وهو يقول : اعلم يا بُنى أن كل أزياء التنكر جائزة فى سبيل الدين والولاء والصداقة . وكل أصناف الملابس جائزة — حمراء كانت أو سوداء لا فرق بين الشارة الثلاثة الألوان التى أحياها وأما أمقتها ، وبين الشارة السوداء والشارة البيضاء ، كما لا فرق بين القبة المحلاة بالوشى والقلمسوة ذات الرفرف المريض التى تلبس فوق

على بال والدتك المسكينة أن ما جاء في هذا الخطاب من الأنباء قد يكون مخالفاً للصدق شأن سائر أحواله معها . وقد طلب إليها أحد الشبان الذين من طبقتهما — وكان يعرف تاريخهما — أن يتزوج منها ويتبنّاك ويسميك باسمه ، ولكنها أبت . وتعرضت بذلك لغضب أبيها وسخطه وكان قد آواها في بيته حيث ما برحت تعاني منذ سقوطها سوء المذلة وقسوة المعاملة، وحيث كانت لا تجرؤ على رفع رأسها استكانة واستخذاء ، فرثت لحالها بمض السيدات الصالحات من معارفها ورتبت لها معاشاً يسيراً فذهبت الفتاة إلى أحد الأديرة ، وعهد بك إلى إحدى الحاضنات إذ كانت أمك من شدة الضعف والهزال بحيث لا تستطيع إرضاعك . فهل لك الآن رغبة في مشاهدة الصليب المنسوب على لحمد الرحومة والدتك في مقبرة الدير ؟ إن رئيسة الدير من أتباعي الأقدمين ، وهي لا تزال تحن إلى ذكرى الراهبة مريم ماجدين ، وهو الاسم الذي اتخذته والدتك في رهبانيتها ، أما حقيقة اسمها فخرترود كنزلو

في أسيل يوم من أيام الربيع العاصية المشرقة ذهب ارنست كنزلو إلى مقبرة الدير فأبصر بين آلاف من الصليبان السوداء وأقباؤها الممتدة على الآكام الخضراء ذلك الصليب المخصوص الذي تضطجع تحته أمه في مثواها الأبدي . لقد تسمى بهذا الاسم (أعني مريم المجدلية حوارية السيد المسيح وخدمته الثابتة) كثير غيرها من أولئك البائسات الرافدات في تلك المضاجع وما هو إلا الشمار الذي وسمتهن به الأحزان والرمز الذي يشير في لطف ورقة إلى ما كابدهن من الحب والجوى .

(٤)

حتى ملّ عشرة الفتاة التي سلّها عفتها وهناءها . ووصل إليه في ذات يوم مبلغ من النقود أرسله إليه عمه مولاي الفيكونت السابق (الذي ورث لقبه بعد وفاته) فادعى أن لديه أشغالاً تضطره إلى الرحيل إلى باريس ثم أكد لأمك الموائيق بوشك إياها ومن ذلك العهد لم ير وجه المرأة المسكينة قط فتهد ارنست كنزلو الذي جدت عيناه ، وكاد أن ينفجر من الغيظ : تبّاً لهؤلاء الأشراف ... وتبّاً لرجال الكنيسة الذين يعبدونهم ويمينونهم على التماذي في الفساد . ألم يكن في مقدورك أيها الراعي الصالح أن تنصحه له بالمقد على أي تلك المسكينة التي ذهبت ضحية غروره وشهوته؟ وهأت ذا تنفجع عليها وكنت تملك إفتاعه بتصحيح موقفه أمام الله والكنيسة ، دع عنك المجتمع والانسانية والعافل المسكين ...

فصمت القسيس ، وأطرق قليلاً ثم قال :

— لقد أقر لي أولاً في عرض اعترافه وثانياً في عرض الحديث بين يدي عمّتك زوجته — الكونتس دي كاييت — وإلا ما كنت مذنباً لك ما أنا اليوم ذاكره — أقول إنه أقر لي بأنه عند قدومه إلى باريس أرسل اعترافاً ضرورياً إلى المسكينة جرترود (والدتك) يخبراً إياها بأنه كان قبل اتصاله بها قد تزوج من امرأة أخرى ، وبأن اسمه ليس برتران وهو الاسم الذي عرفته به وبأنه على وشك مغادرة أوربا إلى مزارعه في فرجينيا ، حيث ما برحت لأمرتك ضيعة أقطعكم إياها الملك لويس الرابع عشر وبعث إليها مع هذا الاعتراف مبلغاً من النقود هو نصف آخر مائة من الجنهات التي كانت معه ثم سألها الصفع عنه واستودعها الله . وما خطر قط

المقبرة شرفات مدينة ليون الزاهرة ومنازلها ويشيم ومضات ولحات من أمور الدنيا ومعتك الحياة فتشهد أرنت وبكى ثم قال : ألا رعاك الله أيها الموت وحياك ! أنت ملجأ الراحة الصامتة ومستقر السكينة العميقة ، لا تنالك أيدي المواقف ولا يزجج سكوتك اضطراب الفلاقل ! وكذلك خرج من المقبرة وإنه يشعر كمن كان ماشياً في قرار البحر العميق يتلمس مواطئ قدميه بين العظام المنتثرة من هياكل السفن المحطمة.

وعاد أرنت كنزولو أدراجه إلى المدينة ، وقد اشترى سراً بسر بعد أن اهتدى إلى قبر تلك الأم التي لم يحظ يوماً بفدائها قائلاً « أماء ... »

محمد الطهي جمعة

وجعل الفتى أرنت كنزولو يتخيل أمه وقد راحت تسكب الدمع تحت جناح الدجى وهي راكمة بين يدي ذلك الصليب الذي دفنت تحته أشجانها وهمومها ، فخر جاتها وأنشأ يتلو صلاته وما به لوعة ولا أسى وإنما هي رهبة ملكت عليه مشاعره (فقد كان لا يبعد من أمه شيئاً حتى ذكرها) ورحمة ورناء لما كابته تلك الروح الرقيقة في حياتها من الآلام التي حضرت بها إلى هذا الصليب حيث استعاضت بهذا العروس السامى من الذي فتنها واستفواها ، والناذر الذي هجرها وأشفاها . وكان على مقربة من الفتى راهبة في قناعها الأسود راكمة بجانب مضجع إحدى الراهبات الراقدات ...

وكان الواقف هنالك يلح من وراء جدران

مؤلفات

الأستاذ محمد كامل حجاج

- ٤٠ بلاغة العرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسى والانكليزى والألماني والايطالى مع تراجم الشعراء والكتاب)
- ٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات في الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيلتان)
- ١٨ نباتات الزينة المشبية (محلى بأحدى وتسعين صورة فنية)
- ١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثاني في جميع المكاتب المشهورة وكتب الزراعة تطلب من شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

بصدر قريباً

حياة الرافعى

للاستاذ محمد سعيد العريان

الاشتراك فيه قبل الطبع ١٠ قروش تدفع إلى إدارة الرسالة ، أو إلى المؤلف بعنوانه :
شبرا مصر . شارع مسرة رقم ٦

ثمن الكتاب بعد الطبع ١٥ قرشاً